

رحلات حجاج مسيحيي الغرب اللاتيني إلى الأراضي المقدسة من التكفير عن الذنوب إلى العدوان الصليبي على بيت المقدس.

The journeys of Latin Western Christian pilgrims to the Holy Land: from
Atonement for sins to Crusader aggression against on Jerusalem



*د. مبروك بن مسعود Dr. Mebrouk Benmessaoud

جامعة محمد خيضر — بسكرة — Mohamed Khider University of Biskra

mebrouk.benmessaoud@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2026/02/06 تاريخ القبول 2026/05/24 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

لقد كانت فترة العصور الوسطى ذات أحداث لها أثرها في تاريخ الإنسانية عامة، وفي التاريخ المسيحي الإسلامي بصفة خاصة، فمن جهة شهد العالم ظهور الإسلام وانتشاره في أرجاء المعمورة، وبداية عصر ازدهار المجتمع الإسلامي في شتى مجالات العلوم والمعارف، وبروز كوكبة من العلماء والمفكرين الذين خاضوا تجاربهم، فكانت بمثابة شعلة أضاءت درب الإنسانية. حينذاك كان الغرب اللاتيني يعيش ركودا وجمودا فكريا وحضاريا، منذ سقوط الجهة الغربية للإمبراطورية الرومانية على يد القبائل الجرمانية، وبذلك كانت لهم اليد الطولى في صناعة قوى جديدة في الغرب. ومقابل ذلك هيأت تلك الظروف ظهور قوة أخرى تمثلت في الكنيسة ورجالها، وبذلك سدت الفراغ الذي ساد آنذاك، ونصبت نفسها راعية للمجتمع اللاتيني، ولا يمكن له أن يرى إلا ما ترى، وذلك زادها بسطة وهيبة، وخاصة بعد أن أحكم الباباوات قبضتهم. وفي الألفية الأولى اعتقد المجتمع بنهاية العالم قد قربت فلجأ إلى حياة الزهد لعله ينال الآخرة، فازدادت حوبتهم وأوبتهم

* المؤلف المراسل

وزياراتهم إلى الأراضي المقدسة للتكفير عن الذنوب، غير أن رحلاتهم ازدادت تطرفاً شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح الحجاج يتوقون إلى افتكاك بيت المقدس من المسلمين بحد سيوفهم. ويرون في ذلك واجبا دينيا مقدسا، جاعلين شعارهم الصليبان المحمولة، كما أنهم حاكوا من القماش صلبانا على أردية أكتافهم.

الكلمات المفتاحية:

رحلات حجاج، مسيحيي الغرب اللاتيني، تكفير عن الذنوب، العدوان الصليبي، بيت المقدس.

ABSTRACT

The medieval period was marked by events that had an impact on the history of humanity in general, and on Christian-Islamic history in particular. On the one hand, the world witnessed the emergence of Islam and its spread throughout the world, and the beginning of an era of flourishing Islamic society in various fields of science and knowledge, and the emergence of a constellation of scholars and thinkers who undertook their experiences, which served as a torch that illuminated the path of humanity. At that time, the Latin West was experiencing intellectual and cultural stagnation and decline following the fall of the western Roman Empire to the Germanic tribes, who thus had a major role in creating new powers in the West. In response, these circumstances paved the way for the emergence of another power: the Church and its clergy. The Church filled the resulting void, establishing itself as the guardian of Latin society, which could only see what it saw. This increased its power and prestige, especially after the popes consolidated their control. In the first millennium, society believed the end of the world was near and turned to asceticism in the hope of attaining salvation in the afterlife. Their pilgrimages to the Holy Land to atone for their sins increased, but their journeys gradually became more extreme until the pilgrims yearned to seize Jerusalem from the Muslims by force. They considered this a sacred religious duty, adopting the cross as their emblem and even sewing crosses on to their shoulder cloaks.

Key Words

Pilgrimages, Western Latin Christians Atonement for sins, Crusader aggression, Jerusalem.

مقدمة:

لقد كانت فترة العصور الوسطى ذات أحداث بالغة الأثر في تاريخ البشرية، في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، فمن جهة ظهور الإسلام وانتشاره، وبداية عصر ازدهار حضاري وصل فيه المسلمون إلى أوج حضارتهم، في شتى مجالات العلوم والمعارف، وبروز كوكبة من العلماء والمفكرين الذين خاضوا تجاربهم، فكانت بمثابة قاعدة انطلاق لمراحل لاحقة.

في حين كان الغرب اللاتيني يعيش فترة الركود والجمود الفكري والحضاري، وهذا بعد سقوط الجهة الغربية للإمبراطورية الرومانية على يد الجرمان، الذين كان لهم اليد العليا في تأسيس كيانات سياسية في الغرب اللاتيني. وقد كان الظرف مهياً لظهور قوة أخرى تمثلت في الكنيسة ورجالها، وبذلك سدت الفراغ الذي ساد آنذاك، ونصبت نفسها راعية للمجتمع اللاتيني، ولا يمكن له أن يرى إلا ما ترى، وذلك زادها هيبة، وخاصة بعد أن أحكم الباباوات قبضتهم.

وأصبح أفراد المجتمع يتوقون إلى الخلاص، بحيث اعتقدوا بأن نهاية العالم قربت مع نهاية الألفية الأولى، لذا لجؤوا إلى حياة الزهد والتقشف لعلمهم ينالون الآخرة، وأصبحت تلك الفترة توصف بعصر الإيمان أو عصر الكنيسة، التي طغت بسلطانها الروحي والسياسي على أفراد المجتمع اللاتيني. ومن صور التكفير عن الذنوب رحلات الحجاج المسيحيين إلى الشرق وخاصة الأراضي المقدسة بفلسطين. والإشكالية المطروحة هي: ما مدى تطور فكرة التكفير عن الذنوب إلى العدوان الصليبي على المدينة المقدسة؟

1- رحلات حجاج مسيحيي الغرب اللاتيني إلى بيت المقدس:

لم تكن زيارة الأراضي المقدسة من الأعمال الواجبة على المسيحيين، والتي اعتبروها مستحدثة، وحتى أن آباء الكنيسة الأوائل عارضوها، نتيجة لما يتعرض له الحجاج من الأخطار وسوء الأحوال، ولكنهم أقروا منذ حوالي القرن الرابع أو الخامس الميلادي، بل

حتى أن الكنيسة كانت تطلب من أتباعها المخطئين بأن يكفروا عن ذنوبهم، بزيارة الأراضي المقدسة بفلسطين.

وعليه فبعد أن كان الحج في مختلف أشكاله بدافع شخصي للقديسين، قامت الكنيسة بجعله نظاما وعلى أساسه تقوم بتكليف المخطئين في نظرها بزيارة أماكن معينة، من أجل غفران الذنوب لمدة سنة أو سبع سنوات أو مدى الحياة، بحيث أصبحت هذه الواجبات واضحة المعالم والمبادئ منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (1059م)، حتى أصبح مصطلح Pergrinus أو الغريب، هو ذلك الفرد الذي غادر موطنه وسافر بعيدا، ليأخذ فيما بعد مدلولاً دينياً ومعناه الحج.

علما أن هذا المصطلح كان معروفا عند المسيحيين الأوائل، وهو بمثابة الطواف والتجوال والانعزال عن حياة الرومان متبعا سلوكا روحانيا، ليصبح في مرحلة لاحقة من مظاهر الرهبنة. وما لبث أن أخذ شكله النهائي في بداية القرن الرابع الميلادي، والذي يعني الرحيل للصلاة وزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين¹.

وقد نشطت رحلات الحج المسيحي إلى الأراضي المقدسة في القرون اللاحقة، لاسيما القرن الثامن الميلادي، وكان ذلك نتيجة لتسامح السلطات الإسلامية مع هؤلاء الحجاج. فقد أصبحت تنفذ إلى بلاد الشام أعداداً كبيرة من أفراد المجتمع اللاتيني، مما جعل الملك الإمبراطور شارلمان (768-814م) يقوم بمحاولات تنظيم هذه الوفود، وذلك بتبادل السفارات والهدايا مع الخليفة العباسي هارون الرشيد (786-809م/170-193هـ)².

ومهما يكن فإن عهد الإمبراطور شارلمان قد شهد ازدهارا لحركة الحج إلى الأراضي المقدسة، وأصبحت تلك الزيارات تحت رعايته، خاصة وأنه أعاد تشييد الفنادق والنزل في فلسطين، وارتحال العديد من الحجاج إلى بيت المقدس لدليل على ذلك.

ومن بين هؤلاء عدد كبير من النساء، كما تم إرسال عدد من الراهبات الإسبانيات لخدمة الضريح المقدس في فلسطين، وهناك دلائل تشير إلى أن عهد الإمبراطور شارلمان

قد شهد دعما واضحا للحج المسيحي، وذلك من خلال وثيقة تاريخية تدل على مدى تسامح المسلمين مع الحجاج المسيحيين. وهذه الوثيقة تُعرف باسم "مفكرة بكنائس بيت المقدس"، التي تحتوي على عدد الكنائس والأديرة بالمدينة والمناطق المجاورة لها، وأسماء وعدد الشماسية والأساقفة والرهبان العاملون بهذه المؤسسات. علما أن هناك من يرى أن الوثيقة كُتبت سنة 808م في ظل العلاقات بين العباسيين والكارولنجيين Carolingians، فمن المستحيل انجاز هذا العمل الكبير والدقيق دون أن يكون بموافقة رسمية. وتكمن قيمة الوثيقة أنها توضح بأن المؤسسات الدينية المسيحية في الأماكن المقدسة، كانت تعيش ازدهاراً كبيراً دون اضطهاد من السلطات الإسلامية³.

وعلى ما يبدو أن المؤسسات الدينية التي بُنيت في عهد شارلمان في بيت المقدس، قد أصبحت خاوية بالرغم من استمرار عملها، وهذا بعد تداعي الإمبراطورية الكارولنجية بعد وفاة هذا الإمبراطور، إذ أن برنارد Bernard الحكيم يذكر ذلك، وهذا بعد زيارته لبيت المقدس سنة 870م، إذ أن هذا الأخير لم يستطع الوصول إلى مراده، إلا بعد حصوله على جواز المرور من السلطة الإسلامية في مدينة باري Bari جنوب إيطاليا، غير أن هذا يعد إجراءً آمناً ولا يمت بصلة لاضطهاد الحجاج المسيحيين⁴.

وخلال القرن العاشر الميلادي تحسنت الأوضاع في عالم البحر الأبيض المتوسط، مما جعل من اليسير إمكانية السفر إلى بيت المقدس هذا من جهة، كما برزت قيمة الحج كوسيلة للتكفير عن الذنوب والتي تبنتها الكنيسة من جهة أخرى. وقد كان لهذا النظام أهمية من الناحية الاجتماعية، إذ أن المجرمين الذين كانوا يرتحلون إلى بيت المقدس، فإنهم يبتعدون عن مجتمعهم لعدة شهور، وفي حالة نجاحهم فإنهم يعودون على الأقل قد تطهروا روحياً⁵.

ومن بين الحجاج الذين ارتحلوا إلى الأراضي المقدسة خلال القرن العاشر الميلادي نجد منهم هيدا Hida كونتيسة مقاطعة سوابيا Swabia الألمانية، التي توفيت أثناء رحلتها المقدسة سنة 969م وجوديث Judith دوقة بافاريا وشقيقة أوتو الكبير

Otto (936-973م)، والتي تواجدت في فلسطين سنة 970م، كما كان هناك الكثير من النبلاء والنبيلات، بل كبار رجال الكنيسة من بينهم القديس كونراد أسقف كونستانس⁶ Constance.

وإن دل ذلك فإنه يدل على أن السلطة الإسلامية في بلاد الشام وبيت المقدس خصوصاً، كانت أبوابها مفتوحة لهؤلاء الحجاج لتأدية طقوسهم الدينية في الأراضي المقدسة. وهذا بحد ذاته شكلاً من أشكال الاعتراف بالآخر وبجريته الدينية، ومرجعية ذلك أن المسلمين يقدسون الحج، بل أنه ركن من أركان الإسلام الخمس "لمن استطاع إليه سبيلاً"، ولهذا تجاوب المسلمون مع الحجاج المسيحيين وتسامحوا معهم أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة⁷.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي، تزايد عدد الوافدين اللاتين إلى بيت المقدس، ومن بين هؤلاء جيلر Guiler كونت مدينة ليموج Limoges بفرنسا الذي حج مع أخيه بالدوين Balduin أسقف المدينة سنة 1002م. غير أنه في هذا القرن قام الخليفة الحاكم بأمر الفاطمي (996-1020م/386-410هـ) بتدمير كنيسة الضريح المقدس. وبشأن ذلك يقول ابن القلانسي: "وقيل في أخبار الحاكم بأمر الله أنه أمر في سنة 398هـ/1007م بهدم بيعة القمامة في بيت المقدس، وهي بيعة عند النصارى جلييلة في نفوسهم"⁸.

ويُعتبر تعامل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله (13-23هـ/634-643م) مع نصارى الشام، وخاصة بيت المقدس، وهذا بعد فتحها سنة 15هـ/636م لدليل على تسامح المسلمين تجاه أهل الذمة من النصارى، حيث أعطى لهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم، ولم يلحق بها أية أضرار، بل أنه أبقى أن يصلي في كنيسة القيامة عندما حان وقت الصلاة، بالرغم من أن البطريرك صفرونيوس Sofhronius (634-638م) أشار عليه بأن يصلي حيث كان، غير أن الخليفة عمر رضي الله عنه اعتذر وصلى على مقربة منها. وهذا خشية أن يطالب المسلمون فيما بعد بحق ليس لهم في الكنيسة"⁹.

ومن الملاحظ أن المسيحيين تحت حكم الإدارة الإسلامية، سواء كانوا حجاجا أو غيرهم فقد تمتعوا بالحرية التامة في تحركاتهم وفي ممارسة طقوسهم الدينية، باستثناء ما حدث في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي، والذي يعد حدثا عابرا، لأن الأمور تحسنت فيما بعد وعادت إلى ما كانت عليه، من تسامح اعتمده المسلمون تجاه أهل الذمة من النصارى¹⁰.

وبعد وفاة الحاكم بأمر الله قام الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث Romanus III (1028-1034م) بعقد اتفاق مع الخليفة الظاهر الفاطمي (1020-1035/411-427هـ)، وهذا من أجل إعادة بناء كنيسة الضريح المقدس، كما قام الإمبراطور قسطنطين التاسع Constantine IX (1042-1055م) بإرسال العمال من أجل المساهمة في بناء الضريح.

ومن مظاهر تحسن العلاقات استمرار رحلات الحج إلى الأراضي المقدسة بالشام¹¹، حيث ازدادت هذه الرحلات للتكفير عن الذنوب نحو المشرق، ولم يقتصر الأمر على أبناء الغرب اللاتيني من المسيحيين الأوائل فحسب، بل بدأت أعداد كبيرة من الشعوب الأخرى التي اعتنقت المسيحية حديثا تتجه نحو الأماكن المقدسة بفلسطين. ومن خلال نص كتبه أحد الرهبان عاش في دير كلوني Cluny سنة ألف للميلاد، حيث يكشف عن موقف من رحلة الحج لم يظهر في أي مصدر من قبل. فالحج بالأعداد الكبيرة إلى بيت المقدس يبدو تنويجا لانجازات الحياة الدنيا: "في الوقت نفسه بدأت أعداد لا تعد ولا تحصى تتجه إلى ضريح المخلص في أورشليم من جميع أنحاء العالم، وفي أعداد أكبر مما كان أي إنسان يظن أنها ممكنة من قبل، ولم يكن هناك العامة والمتوسطون من الناس فقط، وإنما كان هناك العديد من الملوك الكبار... وكان العدد الكثير يرغب في الموت هناك، بدلا من العودة إلى الوطن"¹².

لقد تزايد في القرن الحادي عشر الميلادي عدد الحجاج، الذين كانوا يرغبون في التكفير عن ذنوبهم، مما جعل من تيار الحج عاملا مهما في صياغة الخلفية الأيديولوجية

للحملات الصليبية على العالم الإسلامي. ففي القرن المذكور آنفا ظهر تيار يعتبر القدس غاية نهائية، وعلى المؤمن أن يسعى إلى هدفه الأسمى، فقد ساد الاعتقاد بأن ملك الأيام الأخيرة أي قبل نهاية العالم هو إمبراطور الغرب اللاتيني، يجب أن يعود بشعبه إلى القدس، كما أصبح في أذهانهم اختلاط القدس السماوية بالقدس الأرضية، بالإضافة إلى امتزاج الرؤى الدينية بالحقائق المادية بشكل يؤكد أن فكرة الخلاص هي نتاج تطور رحلات الحج المسيحي، بحيث أصبح من روافد الأيديولوجية الغربية لخوض غمار الحروب الصليبية¹³.

ففي ذلك العصر كان أفراد المجتمع يتوقون إلى خلاص أرواحهم، إذ أنه في تلك الفترة سيطرت على أذهانهم فكرة الألفية أي نهاية العالم بمرور الألف الأولى بعد المسيح عليه السلام، بحيث يذهبون إلى الضريح المقدس وكل الأماكن المقدسة، وهذا من أجل وجودهم هناك زمن المسيح الدجال من أجل محاربتة، بالإضافة إلى معاناتهم من أجل الرب. وبهذا يكون لهم الفضل ويستحقون المشاركة في مجد المختارين يوم الدينونة¹⁴.

وفي ظل هذا الجو المفعم بالحماسة الدينية والفكرية، كان لزاما على أن يتحول الحج طقس من طقوس التطهر الفردي إلى عملية تكفير جماعي، ونتيجة لطبيعة الأحداث التي تزامنت مع رحلات الحج، أخذ المحور الديني لعملية الحج يختفي شيئا فشيئا.

فقد بادر الحجاج بتشكيلون جماعات جماعات تحمل السلاح، وقد ازداد تعداد هذه الجماعات مع مرور الوقت (1054م، 1064، 1065م)، وقد سبب ذلك العدد الكبير اضطرابا عند وصوله إلى الساحل الشامي. وهنا نقطة مفصلية تفصل بين الحج والصليبية، فقد كانت الحملة الصليبية الأولى رحلة حج في نظر من عايشوها، غير أنه حج مسلح بمباركة البابا والكنيسة، في حين يرى آخرون أن الحملة الصليبية امتداد منطقي لرحلة الحج، وأن ذلك لم يخطر على بال أحد أن يتوجه الغزو لبيت المقدس، لو لم يكن آلاف من الحجاج قد ساروا على درب الحج على مدى قرون سالفة¹⁵.

إن فكرة الضريح المقدس يجب أن يكون بأيدي المسيحيين، قد ولدت وترعرعت في رحم رحلة الحج، ونتيجة لانتشار الشائعات في الغرب اللاتيني عن تعسف وتعنت

المسلمين مع الحجاج، وبالرغم من المبالغة في هذه الأخبار فإن الحوليات والمصادر التاريخية تحدثت عنها بالشكل الذي يوضح ويؤكد بأن الرأي العام في الغرب اللاتيني يريد الاستحواذ على الأراضي المقدسة في فلسطين، وهذا بحمد ذاته ملمح من ملامح الأيديولوجية الصليبية. وبذلك تعد هذه القصص ذريعة تحتاجها الحرب المقدسة أو الحرب العادلة التي عدها أغسطين Augustin ومن بعده قد ثبتوا نظريتها في الغرب اللاتيني. وفي ذلك اختلطت مفاهيم الحج بمفاهيم الحرب المقدسة، وأن الذين يموتون خلال مسيرتهم نحو الأراضي المقدسة فهم شهداء، وبذلك يدخلون الفردوس¹⁶.

ويبين ذلك روبرت الراهب Robert le Moine، في خطاب البابا أوربا الثاني لخوض غمار الحرب الصليبية: "... هذه المدينة الملكية (أي بيت المقدس)، التي تقع في وسط العالم، والتي أصبحت الآن أسيرة لأعدائها، تحولت إلى عبودية الأمم الجاهلة بقانون الله. لذلك فهمي تطلب منك وتتمنى خلاصها، ولا تتوقف أبداً عن المطالبة بأن تأتي لإنقاذها. إنها في الغالب تتوقع منك المساعدة، لأنه كما أخبرناك، لقد منحك الله، قبل كل شيء "الشارة المجيدة". خذ هذا الطريق (باتجاه الشرق) من المجد الذي ينتظرك في مملكة السماوات"¹⁷.

وبتزايد عدد الحجاج إلى بيت المقدس لم تقم السلطات الإسلامية بمنع هؤلاء، بالرغم من أن السلاجقة قد وسعوا نفوذهم على منطقة الشام بداية من سنة 1070م/463هـ، غير أن توسع النفوذ السلجوقي على حساب آسيا الصغرى قد أدى إلى تدهور الأوضاع وجعل الطرق غير آمنة، وبالتالي أصبحت بيت المقدس صعبة المنال¹⁸. وفي سنة 1074م دعت البابوية الحجاج للتسلح حتى يتمكنوا من الوصول إلى بيت المقدس، وكان ذلك مع بداية حكم البابا جريجوري السابع Gregory VII (1073-1085م)¹⁹.

وتواصلت رحلات الحج باتجاه الشرق، بالرغم من سوء الأوضاع فترة التوسع السلجوقي على حساب الشام وآسيا الصغرى، ومن أمثلة ذلك قيام رحلة حج كبيرة

ذات تسليح سنة 1088م باتجاه بيت المقدس بقيادة الكونت روبرت الأول من فلاندرز Robert I of Flandres، وهذا قبيل سنوات معدودة من افتتاح البابا أوربان الثاني مجمع كليمونت Clermont بخطابه الحماسي، لخوض الحرب الصليبية على المشرق²⁰. ومن الواضح أن المجتمع اللاتيني وعلى رأسه الكنيسة الكاثوليكية، كان رافض لبقاء الأراضي المقدسة بفلسطين بأيدي المسلمين، فقد صورتهم الدعاية الكنسية بصورة الكفار المتوحشين²¹.

لقد كانت نظرة سكان الغرب اللاتيني، والفرنجة على الخصوص لأعدائهم المسلمين نابعة من قصص الفروسية وبطولات فرسان الغرب، فقد كانت الروايات والقصص هي كل ما يقرأه النبلاء وكل من تعلم القراءة من أفراد المجتمع اللاتيني، وقد كُتبت هذه الروايات خلال القرون الثلاثة الميلادية الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، والتي كانت مؤيدة لوجهة نظر الصليبيين، كما طغت قصص البطولات في القصور وفي الأسواق وفي مختلف أماكن التجمعات، وتدرجياً ارتبط لفظ المسلمين في أذهان العامة بمسمى "العدو الديني" أو "المخالفين في العقيدة".

وبالرغم من الوجود الايجابي للمسلمين في اسبانيا وجنوب فرنسا وفي صقلية، إلا أن الذين يحملون أفكارا متطرفة ينظرون إليه نظرة العدو، لاسيما اختلاف العقيدة حسب ما يعتقدونه، وبطبيعة الحال أدى في النهاية إلى الصراع. وبداية مع نعمة الحروب الصليبية، تغيرت صورة الجنود المسلمين في فرنسا، حيث وصف البابا أوربان الثاني المسلمين "بأنهم شعب بدون إله"، كما "أنهم رجال ليس لهم دين ومصيرهم النار الأبدية"، بالإضافة إلى أوصاف أخرى تبين مدى كراهيته للمسلمين. كما أن القديس برنارد دي كليرفو Bernard of Clairvaux (1090-1153م)، قد أباح قتل كل مسلم "إن قتل المسلمين ليس خطيئة"، وحسب اعتقاده أن المسلمين أعداء للمسيحية²²، وهذا يجد ذاته فكراً متطرفاً سار على نهجه رجال الدين خصوصاً.

2- من التكفير عن الذنوب إلى خطاب الكراهية ضد المسلمين:

لاشك في أن الصراع بين الشرق والغرب، أي بين العالم الإسلامي ونظيره الأوروبي، قد غذته الكنيسة بأفكارها المتطرفة، والتي تحمل عداءً لكل مسلم، بل صورت المسلمين بأنهم أعداء للمسيحية ولمخلص البشرية عيسى -عليه السلام-.

وقد كان لبعض الباباوات نظرة ثابتة ما إن أتاحت لهم الفرصة، إلا وأخذوها على محمل الجد وبادروا بتوحيد جهود المسيحيين، بل استغلال قوتهم وبسالتهم في الحرب، وتوجيهها لضرب المسلمين. وتظهر ذلك مع شخصية البابا أوربان الثاني الذي ذاع صيته في الحقبة الوسيطة، وعلت كلمته في المجالس الدينية ومنها، مجمع كليرمونت بفرنسا France سنة 1095م، إذ أنه دعا لخوض غمار الحرب المقدسة ضد المسلمين، فأصبح الإقبال على الأراضي المقدسة يزداد قصد تحريرها من المسلمين حسب ما يزعمون، وقد تداخلت مع ذلك دوافع أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية²³. فالبابا أوربان الثاني حمل على عاتقه مسؤولية الدعوة للحملة الصليبية والتبشير لها في ربوع الغرب اللاتيني، وكان اختياره كليرمونت فيرند Ferrand في مقاطعة أوفيرني Auvergne²⁴.

وقد جاء في خطابه حسب ما يرويه فوشيه الشارترى، مايلي: بما أنكم يا أبناء الله قد وعدتموه بأن تحفظوا السلام بينكم، وأن تخلصوا أكثر مما مضى في المحافظة على حقوق الكنيسة، فإن عليكم أن تؤدّوا مهمة ملحة لكم ولله. تستطيعون أن تُظهروا فيها مدى صدق نواياكم. وعليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم في المشرق الذين يحتاجون المساعدة وطالما التمسوها.

إن الأتراك قد هاجمهم كما يعلم الكثيرون منكم، وتقدموا داخل الأراضي الرومانية إلى أن وصلوا إلى ذلك الجزء من البحر الأبيض المتوسط، الذي يُدعى ذراع القديس جورج (بحر مرمرة)، ولقد انتزعوا شيئاً فشيئاً من أراضي المسيحيين وهزمهم في سبع معارك حتى الآن وقتلوا وأسروا الكثيرين، وهدموا الكنائس ودمروا مملكة الله، وإن سمحتم لهم بالتقدم فإن احتلالهم وقهرهم لشعب الله المؤمن يكون أشمل وأعم²⁵.

ويواصل البابا خطابه والحاضرون يستمعون، بنفوس تتأجج نارها كلما واصل خطابه بكلمات معبرة عن كرهه لكل من هو مسلم. "لذا وبصلاة خاشعة فإنني لا، بل أن الله وليس أنا يحثكم يا جنود المسيح على أن تحثوا الرجال مهما كانت مراتبهم، بأن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا، ويمدوا يد العون للسكان المسيحيين قبل فوات الأوان. إنني أخطب الحاضرين وأعلن للغائبين، وعلاوة على ذلك فإن يسوع المسيح يأمر بمايلي: "كل من يذهب إلى هناك سوف تُغفر له كل خطاياه، إذا ما واجه حتفه زاحفا في البر أو عابر البحر أو مقاتل الكفار، إنني أمنح ذلك لكل من يذهب، مستمدا القوة من السلطة التي وضعها الله فيّ. يا خزيننا ويا عارنا إذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط، وتستعبده الشياطين والعفاريت على شعب أنعم الله القدير عليه بالإيمان وتباهى باسم المسيح. آه كم من المعايير سترمون بها حتى من الرب نفسه، إذا لم تقوموا بعون من يعتبرون مثل أنفسكم في الدين المسيحي"²⁶.

ويوقد البابا كلمات خطابه بالحماس الديني، التي تريد من عزيمة الحاضرين وتعددهم بجنة الخلد، التي وعد بها المسيح عليه السلام المقاتلين في سبيله. "دع أولئك الذين اعتادوا على شن حروبهم الخاصة بطيش على المؤمنين، أن يزحفوا على الكفار بحرب تبدأ الآن، ولا تنتهي إلا بالنصر. وليصبح أولئك الذين طال كوثهم لصوصا جنودا للمسيح، دع أولئك الذين حاربوا في الماضي ضد إخوانهم وأقاربهم يحاربون بحق ضد البرابرة، دع أولئك الذين كانوا يُستأجرون لقاء عدة قطع من الفضة، يحصلون الآن على ثواب مخلد. دع أولئك الذين كانوا ينهكون أنفسهم متلفين أجسادهم وأرواحهم يعملون الآن للمجد المثني، أجل فعلى هذه الناحية سيقف التعساء والفقراء، وعلى تلك السعداء والأثرياء، هنا أعداء الله وهناك أصدقائه. لا تدعوا حائلا يعيق من يريد الذهاب، دعهم يرتبون أمورهم ويجمعون أموالهم، وعندما ينتهي فصل الشتاء ويحل الربيع دعهم يبدؤون بحماس هذه الرحلة في رعاية الله"²⁷.

وبكلمات مليئة بالكراهية ضد المسلمين الذين وصفهم بالكفار، ودعوته للسلام بين المسيحيين، وأن في العدو الأخرى مُلك دنيوي وخلاص من الذنوب وتطهير للنفس من أجل النعيم الأبدي. وعلى ما يبدو أن البابا قد حدد لهم وقت تحرك الحجاج المسلحين، وهذا بعد انتهاء فصل الشتاء أي تجاوز الظروف البيئية القاسية، بالإضافة إلى إعداد العدة لرحلتهم المقدسة.

لقد كان خطاب البابا أوربان الثاني خطاباً حماسياً، جعل الحاضرين يهتفون بصوت واحد إنها إرادة الله، فخطابه دعوة لتسليح الحجاج، بمعنى أن الجندي الصليبي هو حاجا بطراز خاص، فهو تميز بحمل السلاح، بل أن السيف الذي يحمله باركته الكنيسة بما أنه جندياً في جيش المسيح²⁸.

ويقول فوشيه الشارترى مفتخراً بمؤلاء الحجاج حاملِي السلاح "أواه كم أسعدنا نفوسنا وأثلج صدورنا، أن نرى هذه الصلبان المصنوعة من الحرير ومن الجوخ المذهب، أو أي نسيج آخر فاخر، وقد حاكها هؤلاء الحجاج فرساناً وعامة على أكتاف أرديتهم"²⁹. وبهذا امتزجت رحلة الحج بفكرة الصليبية، وأصبح كل منهما تعني الأخرى في بداية الحملة الصليبية. وسرعان ما توارت فكرة الحج مع نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وهذا حين ظهرت الكلمة اللاتينية *Crusisiganti* ومعناها ذو الصليب للتعبير عن الصليبيين³⁰.

3- اجتياح المدينة المقدسة واحتلالها:

من خلال ما جرى على ساحة المعركة أثناء غزو بيت المقدس، تبين مدى الوحشية التي ارتكبتها الغزاة الفرنجة في حق المسلمين، وهذا دليل قاطع على مدى الكراهية تجاه كل مسلم. وقد دون بعض من عاصر تلك الحملة وصور لنا بعض مشاهدتها للدليل آخر على أن فكرة البابا أوربان الثاني قد تجسدت على أرض الواقع. حيث يقول أحد مؤرخيهم: "فلما دخل حجاجنا المدينة جثوا في قتل الشرقيين

ومطاردتهم حتى قبة عمر، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفضع القتل طيلة اليوم، حتى فاض المعبد كله بدمائهم³¹.

في حين يقول ريمون داجيل: "فقد قُطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة، وتكدست في البيوت والطرقات الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام"³². بينما يقول المؤرخ ابن الأثير أن عدد القتلى كان مروع جدا: "وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى، ما يزيد عن سبعين ألف، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم زهادهم"³³. كما يذكر ابن الجوزي عن تلك المذبحة التي حدثت للمسلمين ببيت المقدس، حيث يقول: "أخذ الإفرنج بيت المقدس في يوم الجمعة 13 من شهر شعبان من سنة 492هـ/15 يوليو 1099م، وقتلوا أكثر من سبعين ألف مسلم"³⁴. وحسب ما يُعتقد لم يكن المسلمون وحدهم من تعرض لهذه الوحشية، فهناك عناصر أخرى كانت تعيش في بيت المقدس، نتيجة التسامح الإسلامي مع مختلف العرقيات والطوائف الدينية. ومن خلال ما يذكره المؤرخ وليم الصوري عن الاجتياح لبيت المقدس أنه كان عنيف جدا، حيث يقول: "وراح فرساننا يذرعون شوارع المدينة، مشهرين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفونه من الأعداء، لا يراعون عمرا ولا وضعاء، فكان في كل ناحية مذبحة مروعة"³⁵. وبذلك تمكن الصليبيون من إقامة كياناتهم ببلاد الشام، والتي تمثلت في كونتية الرها وإمارة إنطاكية ومملكة بيت المقدس، بالإضافة إلى إمارة طرابلس، وهذا في ظل ضعف البيت الإسلامي وانقسامه على نفسه سياسيا ومذهبيا. ولا شك في أن مملكة بيت المقدس أعطت أولوية للحج لتظهر بمظهر المشرف والمدافع عن المقدسات الدينية المسيحية³⁶. وهكذا وجد المسلمون أنفسهم أمام محتل مستوطن لأراضيهم، فما عليهم سوى توحيد جهودهم ومواجهته مرة أخرى لعل النصر يكون حليفهم. وهذا ما تم فعلا في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (1174-1193م/567-589هـ) الذي وحد مصر والشام، وتمكن من تحرير بيت المقدس، وذلك بعد انتصاره على الصليبيين في معركة حطين سنة 1187م/583هـ³⁷.

الخلاصة:

لا شك أن كل أمة ترى في دينها فسحة لتصحيح أخطائها، والتوبة من ذنوبها والتكفير عنها، ويظهر ذلك مع المسيحيين الذي يرون ذلك طريقا لنجاتهم من برائث أعمالهم، ويكون ذلك بزيارة الأماكن المقدسة، ومنها بيت المقدس خاصة، كونها مهدا للمسيح عليه السلام وذات أثر في نفوسهم وعقيدة خالصة لهم. ولذلك كانت الرحلة باتجاه المدينة المقدسة، واجبا دينيا لتطهير النفس.

وقد تعاملت الإدارة الإسلامية مع هؤلاء المسيحيين بالحسنى، واعتبارهم أهل ذمة ولهم الحق في زيارة المقدسات الدينية دون إلحاق أية أضرار بهؤلاء ليس هذا فحسب، بل بالغت في حمايتهم والحفاظ على ممتلكاتهم هناك واعتبار ذلك مقدسا. غير أنه بمرور الزمن رأت الكنيسة الكاثوليكية ورجالها وخاصة المتطرفين الذي يحملون عداوة للمسلمين، بأن الرحلة نحو الشرق تعد مشروعا صليبيا لتحقيق مآرب متعددة منها السياسية والاقتصادية، ويظهر ذلك بشكل جلي مع مجيء أوربان الثاني واعتلائه عرش البابوية.

وبذلك تكون كلمته مسموعة في الغرب ويجند الفرسان والأمراء لخوض غمار الحرب التي رآها حربا مقدسة، من خلالها يسترجع المقدسات الدينية المسيحية. ويحقق ما يريده سياسيا وروحيا على العالم المسيحي بشقيه الغربي والشرقي. وخلاصة القول، استطاع المتطرفون، وخاصة رجال الدين الكاثوليك ومن سار على شاكلتهم، أن يجدوا في رحلة الحج وسيلة لحشد الجموع وإثارة حماسهم الديني لضرب المسلمين، وتأسيس كياناتهم الاستيطاني ببيت المقدس، أي توظيف الدين لغاية دنيوية.

الهوامش والإحالات :

¹ هنادى السيد محمود، حركة الحج إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في القرنين 12 و13 ميلادي، 2013، القاهرة: دار الآفاق العربية، ص.ص. 28-32.

² المرجع نفسه، ص.ص. 47-48.

- ³ محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م. القاهرة، 1992، مكتبة مدبولي، ص.ص. 21-22.
- ⁴ المرجع نفسه، ص. 22.
- ⁵ قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية. القاهرة، 1999، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص.ص. 32-33.
- ⁶ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص.ص. 52-53.
- ⁷ قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص.ص. 30-31.
- ⁸ ابن القلانسي أبو يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق. بيروت، 1908، مطبعة الآباء اليسوعيين، ص. 66.
- ⁹ عارف العارف، تاريخ القدس، مج. 2، القاهرة، 1951، دار المعارف، ص.ص. 265-266.
- ¹⁰ هنادي السيد محمود، المرجع السابق، ص. 54.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص.ص. 54-55.
- ¹² قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص.ص. 33-34.
- ¹³ المرجع نفسه، ص. 34.
- ¹⁴ نفسه.
- ¹⁵ نفسه، ص. 35.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص.ص. 35-36.
- ¹⁷ Robert, l. m. , histoire de la premiere croisade, traduction de Guizot (m), dans collections des mémoires ralatifs a l'histoire de france depuis la fondation monarchie française jusqu'au 13 siecle. Paris: Imp.de lebel, 1825, PP.301-313.
- ¹⁸ هنادي، المرجع السابق، ص.ص. 57-58.
- ¹⁹ سوريال عطية عزيز. الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، (د.ت.ط) القاهرة، دار الثقافة، ص. 34.
- ²⁰ محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص.ص. 25-26.
- ²¹ هنادي، المرجع السابق، ص. 59.
- ²² ستامبولي رمون، مفاتيح أورشليم القدس، حملتان صليبيتان على مصر (1200-1250)، ترجمة: عايدة الباجوري، مراجعة وتقديم: إسحاق عبيد، 2009، المركز القومي للترجمة، ص.ص. 37-39.
- ²³ هنادي، المرجع السابق، ص.ص. 28-31، 62.
- ²⁴ Murray, A, Le Concile de Clermont de 1095 et l'appel à la croisade. Actes du Colloque Universitaire International de. Clermont-Ferrand (23-

25 juin 1995) organisé et publié avec le concours du Conseil Régional d'Auvergne.. In:Revue belge de philologie et d'histoire,2000, tome 78, fasc. 3-4

²⁵ الشارترى فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس (1095-1127م)، 1990، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت، ص.36.

²⁶ نفسه

²⁷ نفسه، ص.ص.36-37.

²⁸ هنادي، المرجع السابق، ص.ص.59-60.

²⁹ الشارترى فوشيه، المصدر السابق، ص.37.

³⁰ هنادي، المرجع السابق، ص.60.

³¹ مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، 1958، دار الفكر العربي، القاهرة، ص.ص.118-119.

³² ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس في الموسوعة الشامية للحروب الصليبية، ج.6، تأليف واعداد وتحقيق: سهيل زكار، 1995، دمشق، ص.295.

³³ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين (1987). الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، مج.9، 1987، دار الكتب العلمية، بيروت، ص.19.

³⁴ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ج.17، 1992، دار الكتب العلمية، بيروت، ص.47.

³⁵ وليم الصوري، الحروب الصليبية، تحقيق: حسن حبشي، ج.2، 1991، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ص.125.

³⁶ محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص.27.

³⁷ ستامبولي ريمون، المرجع السابق، ص.45.